قراءتي لميمية القاضي الجرجاني
بتحقيق الأستاذ إبراهيم صالح

د. عزة حسن

سعدت بقراءة هذه القصيدة الطويلة الجميلة من الشعر العربي القديم، في صورتها الكاملة، المنشورة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق[1]، بتحقيق الأستاذ العالم إبراهيم صالح، وكنت قرأت، من سنين خلتْ، الأبيات العشرين المختارة من هذه القصيدة في كتاب (التذكرة السعدية في الأشعار العربية)[2] من تأليف محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي، من رجال القرن الثامن للهجرة.

والقاضي الجرجاني هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز، صاحب كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) الذي قال عنه أبو منصور الثعالبي في كتابه (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر). «ولما عمل الصاحب[3] رسالته المعروفة في إظهار مساوئ المتنبي عمل القاضي أبو الحسن كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره). فأحسن وأبدع وأطال وأطاب، وأصاب شاكلة الصواب. واستولى على الأمد في فصل الخطاب. وأعرب عن تبحّره في الأدب، وعلم العرب، وتمكّنه من جودة الحفظ، وقوة النقد. فسار الكتاب مسير الرياح، وطار في البلاد بغير جناح»[4].

---

(1) المجلد التاسع والسبعون، الجزء الرابع، ص ٧٨٩- ٧٩٨.

(2) التذكرة السعدية ص ٣٨٦- ٣٨٧، بتحقيق عبد الله الجبوري. بغداد ١٣٩١-١٩٧٢.

(3) يريد الصاحب ابن عبّاد الوزير المشهور.

(4) يتيمة الدهر ٤/٤-٥، بتحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠-٢٠٠٠.

وكان القاضي الجرجاني شاعرًا، إلى جانب كونه عالمًا في الأدب، وعلم العرب. تناثرت أشعاره المختارة في كتب الأدب، مثل (يتيمة الدهر) للثعالبي و(التذكرة السعدية) للعبيدي وغيرهما. وقد جمع أشعاره من هذه المظان الأستاذ سميح إبراهيم صالح، أصدرها في ديوان(٥) وأشهر أشعاره هذه القصيدة الميمية الطويلة الجميلة التي قال فيها الأستاذ إبراهيم صالح : «هذه الميمية التي كانت مثار إعجاب القاصي والداني، عبر قرون طوال، وعلى مدى اتساع العالم الإسلامي، بما تضمّنته من حكم وعزّة نفس وشموخ وإباء، ينبغي أن يتحلى بها أهل العلم بين الناس»(٦). وحقًا تعدّ هذه الميمية درّة فاخرة وتحفة نادرة، من عيون الشعر العربي القديم وفرائده النفيسة.

وقد ذكر الأستاذ إبراهيم صالح أن ديوان القاضي الجرجاني الصادر في دمشق يضم ستة وعشرين بيتًا فحسب من هذه الميمية، وأنها ليست تمام القصيدة(٧). وأورد في هذا الشأن قول محقق الديوان الأستاذ سميح إبراهيم صالح : «فنحن لا نعلم عدد أبيات هذه القصيدة على وجه الدقة، وإن وجدت حاشية كتبها قارئ تعليقًا على الميمية في (شرح المضنون به على غير أهله(٨))، تقول: وهي قصيدة تبلغ أربعةً وأربعين بيتًا. وقفت عليها بخط أستاذي وأخي الشيخ محمد بن العلاّمة الشيخ أحمد القاسمي، نفع الله بعلومه»(٩).

(5) صدر عن دار البشائر بدمشق سنة ٢٠٠٣.

(6) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المرجع السابق ص ٧٨٩.

(7) المرجع نفسه ص ٧٩٠.

(8) هو كتاب لعبيد الله بن عبد الكافي بن عبد المجيد العبيدي. طبع في القاهرة سنة ١٩١٣-١٩١٥.

(9) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المرجع السابق ص ٧٩٠.

ثم أبدى الأستاذ إبراهيم صالح فرحته بتلقّيه، من العالم المحقق العراقي الدكتور جليل العطية، صفحتين مصوّرتين من مخطوطة كتاب (رياض الآداب ومنارة الألباب) لمؤلف مجهول، محفوظة في خزانة رئيس الكتاب مصطفى أفندي. وهذه الخزانة من مدّخرات المكتبة السليمانية العامة في إستانبول التي أنشأها السلطان سليمان القانوني أعظم سلاطين الدولة العثمانية.

وقال الأستاذ إبراهيم صالح: «فالقصيدة في مخطوطتنا تتكون من واحد وخمسين بيتًا. أضفنا إليها أربعة أبيات من الديوان. فصار المجموع خمسةً وخمسين بيتًا، بزيادة أحد عشر بيتًا، على الذي ذكر في حاشية المضنون به على غير أهله»(١٠).

وختم كلامه بقوله: «وهذه هي ميمية القاضي الجرجاني، رحمه الله تعالى، تنشر أول مرة كاملة بحمده تعالى»(١١).

لقد جوّد الأستاذ إبراهيم صالح تحقيق هذه القصيدة، وأحسن في نشرها كاملة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. فله منا الثناء الجميل السّنيّ على علمه وجهده في تحقيق هذا التراث العظيم وإحيائه، ولمجمع اللغة العربية بدمشق الفضل في نشر هذه القصيدة الجميلة في مجلته العريقة الغرّاء.

وفي قراءتي للقصيدة وجدت بعض الخلل في تحقيق مواضع قليلة معدودة من أبياتها. فأحببت أن أشير إليها، وأبيّن الصواب الذي لاح لي فيها. وأنا أقدّم أقوالي وآرائي في ذلك كله بقصد تكميل وتحسين هذا العمل الجميل. وأجعلها

(10) المرجع نفسه ص ٧٩١-٧٩٢.

(11) المرجع نفسه ص ٧٩٢

هدية مني لأخي الكريم العالم إبراهيم صالح، مع التحية الطيبة، والمحبة الصادقة، والتقدير البليغ لعلمه وفضله. جزاه الله خيرًا، ولقّاه برًا.

١– البيت السابع:

وطَيْفٍ تَخَطّتْ أعينُ الناسِ والكرَى إلى ناظرٍ يَلْقى التباريحَ منهما

وفيه غلط ظاهر. صوابه:

وطيفٍ تخطّى أعيُنَ الناسِ والكرى.

والقاضي الجرجاني يصف هنا، على عادة شعراء العرب، طيف الحبيب الذي يتخطّى أعين الناس، ويسري في الليل، ويعتاد خيال الشاعر، أو (ناظره) كما قال القاضي الجرجاني، في أحلام اليقظة.

٢– البيت الثالث عشر:

سَقى البرقُ أكنافَ الحِمى كلَّ رائح إذا قَلِقتْ فيه الجُنُوبُ ترنَّما

وأرى الصواب فيه:

الجَنُوب، بفتح الجيم، وهي ريح الجَنُوب المعروفة. والكلام في البيت دائِرٌ على البرق والسحاب الرائح في المساء وريح الجَنوب كما نرى.

٣– البيت السابع عشر:

كأنَّ أبا عمرٍو تخلَّلَ رَوْضَها ففاحَ منه عَرْفًا وأشرق مَبْسَما

والصواب فيه:

وأشرق مَبْسِما، بكسر السين، لأنه من بَسَم يَبْسِم[١٢].

(12) [لم ينتبه المحقّق ولا قارئ التحقيق إلى أن البيت مختلّ الوزن. والصواب وضع «لَهُ» بدل «منه» ليستقيم الوزن، فيكون الشطر الثاني على النحو:

ففاحَ لَهُ عَرْفًا وأشرَقَ مَبسِما]/ المجلة.

٤– البيت السادس والعشرون:

فأُصْبِحُ من عَتْب اللئيم مُسَلَّمًا وقد رُحْتُ من نفس الكريم مُعَظَّما

وأرى الصواب فيه:

فأُصبحُ من عَيْب اللئيم مسلمًا

فاللئيم يَعِيب ولا يعتب. إنما الذي يعتب فهو الصديق الحميم الكريم. والكلمة مرسومة (عيب) في المخطوطة. و(عتب) تصحيف من ضلال النسخ، لا ريب.

٥– البيت السابع والعشرون:

فأُقسِم ما غُرَّ امرؤ حُسِّنَتْ له مسامرةُ الأطماع إنْ بات مُعْدِما

القراءة الصحيحة القويمة في هذا البيت:

فأُقسِم ما عَزَّ امرؤٌ حَسُنَتْ له

ولايناسب فعل (غُرَّ) هنا معنى البيت كما نرى. وهو يريد (بمسامرة الأطماع) الرُّكونَ إلى الأطماع أي الأحلام البعيدة بالغنى، والقعودَ عن السعي والطلب في سبيل الرزق للخلاص من العُدْم.

٦– البيت الحادي والأربعون:

وما كلُّ برقٍ لاح لي يستفزُّني وما كل ما في الأرض أرضاه مُنْعِما

نرى أن الأصح الأحسنَ هنا:

وما كل مَنْ في الأرض أرضاه مُنْعِما[١٣]

(13) [لا ضَير في استعمال «ما» التي هي لغير العاقل في هذا الموضع، لأنه يَحتمل أن يكون الشاعر أراد أن جميع الأشياء والمغريات المادية لا تُرضيه ولا تجعله سعيدًا، فهو لا يعبأ بها. ولهذا فبقاء «ما» في البيت أصحّ وأحسن من استبدال «مَن» بها]/ المجلة.

٧– البيت السادس والأربعون:

ولا يسأل المثرينَ ما بأكفّهمْ، ولو مات جوعًا، غُصَّةً وتكرُّما

والصواب في هذا البيت: عِفَّةً وتكرُّما.

وكلمة (غصة) هنا لا تناسب كلمة (تكرما) في معناها البتة. فهي تصحيف (عفة) لا ريب. والمعنى المراد في سياق البيت: لا يسأل المثْرين، لعِفّته وتكرمه، ولو مات جوعًا.

٨– البيت السابع والأربعون:

فكم نعمةٍ كانت على الحرّ نِقْمة وكم مَغْنمٍ يعتدّه المرءُ مغنما

الصواب أن يكون: يعتدّه المرء مَغْرَما، وليس مغنما، ليستقيم معنى البيت في أوله وفي آخره. وقد جاء البيت صحيحًا في المخطوطة. وذكر الأستاذ إبراهيم في الحاشية أنه:«في الديوان:...يعتده الحرُّ مغرمًا»

وهو الصواب الذي يعزّز صحّة ما جاء في المخطوطة.

٩– البيت الحادي والخمسون:

وليس ببِدْعٍ من عُلاكَ عنايةٌ تُسَهِّلُ لي.....

قال الأستاذ إبراهيم في الحاشية: «في الأصل: تسهل لي ما أعنت المتجهما. ولم يتّجه لي صوابه».

ونرى أنّ الصواب هنا هو:

تسهِّل لي ما أَعْنَتَ المتَجَهِّما.

أعنت المتجهمَ: أي شَقَّ عليه واشتدَّ. من العَنَت وهو المشَقّة والشِّدّة. جاء في لسان العرب (عنت):

«العَنَت: دخول المشقّة على الإنسان، ولِقاءُ الشدّة. يقال: أعْنَتَ فلان فلانًا إعناتًا، إذا أدخل عليه عَنَتًا، أي مشقّة». والمتجهم: أراد به الرجل الشديد المتصعّب، فيما نرى.

والمعنى المراد في البيت: عنايتك بي تسهِّل لي الأمرَ الذي يُعْنِت المتجهمَ، أي الأمر الصعب الشديد. وهو من معاني المدح كما نرى.

١٠-البيت الثاني والخمسون:

يُقَرِّب مني ما تباعدَ وانتأى ويَخْفِض نحوي ما تصاعدَ واسْتَمى

الصواب فيه: تُقرِّب مني.... وتَخفِض نحوي. فهذان الفعلان عائدان لكلمة (عناية) في البيت السابق. ويعزّز ذلك قوله فيه: تسهِّل لي.

* * *

وبعدُ فقد بقيت في نفسي كلمة أقولها لأخي الأستاذ إبراهيم صالح في صدق ومحبة وتقدير لعلمه وفضله وجهده. إن الشرح والتفسير والإيضاح تعدّ من الدعائم الأساسية للإحسان والإفادة في تحقيق النصوص الأدبية، ولا سيما نصوص الأشعار القديمة.

أعني شرحَ بعض ألفاظ اللغة العربية، وتفسير بعض المعاني الغامضة، وإيضاح الصور الشعرية، وكشف تشكيلها، وبيانَ مراميها. ويكون ذلك في إيجاز وتلميح، من غير إطالة وتفصيل.

وفي هذه القصيدة القديمة أشياءُ كثيرة تحتاج إلى الشرح والتفسير والإيضاح. تركها الأستاذ إبراهيم غيرَ مَجْلُوّة، ولم يلتفت إليها. مثل قول القاضي الجرجاني في البيت الحادي والأربعين:

وما كلُّ برقٍ لاحَ لي يَسْتَفِزُّني.

فهذه صورة شعرية مجازية خَفِيّة. معناها اللغوي اللفظي قريب واضح. أما معناها المجازي فخَفِيّ، يحتاج إلى بيان وإيضاح. وهو: ليس كل إنسان ذي مقام عالٍ يحرّكني للاهتمام به ومديحي له. ومعنى الشطر الثاني من البيت نفسه:

وما كل مَنْ في الأرض أرضاه مُنْعِما.

يعزّز معنى الصورة الشعرية ويُتَمِّمُه.

وغنيّ عن البيان أنَ جمهور القراء يكونون متفاوتين في امتلاك الثروة الثقافية، ومختلفين في مستوى الفهم والإدراك. لذلك ينبغي للعالم الذي ينتدب لتحقيق نصوص الشعر القديم أنْ يراعي هذا التفاوت والاختلاف لدى جمهور القراء، وأنْ يكون دليلَهم النابه النافذَ في قراءة هذا الشعر، بشرح لغته، وتفسير معانيه، وإيضاح صوره، وكشف مراميه. وفي ذلك جدوى وعَوْنٌ لهم على حسن الفهم والإدراك، والمتعة الجمالية الغنية في قراءة الشعر. وهذا ما كان علماؤنا القدماء يفعلونه في صنعتهم دواوين الشعراء، مثل أبي سعيد الأصمعي، وأبي سعيد السكّري، والأعلم الشنْتَمَري الأندلسي وغيرهم.